هوامش على حياة هلال ابراهيم الحيمو

********** قصة بقلم ابراهيم الجراري

الى س . بركات
الفريد الذي تسلح .

قبل ثماني عشرة سنة بالضبط ، خرج من «بندرخان» . كان ذلك حينما داهمها القحط ، واجتاحتها السيول، واصبح اهلها يقتتلون .

عمل راعيا ،
عمل شيالا ،
عمل سايسا ،

وانجب تسعة اطفال من امراته المدورة والقصيرة . ست بنات ، وثلاثة اطفال .

سموا الاول « جاسم » والثاني « هلال » والثالث « حاجه (١) » .

عندما احتوته « الرقة » وسكن اطرافها ، شعر بضيق وضجر ، لانه اعتاد على « الخلاء » في السهول .

كان « ابراهيم الحيمو » طيبا وهادئا كمساءات القرى . محبوبا من فقرها ومن الناس فيها . حين طلبته العشائر المالكة ليعمل راعيا ، هجر المدينة راغبا واسكن قراها .

* * *

مرت سنوات .
« جاسم » أصبح خائبا .
و« حاجه » ما زال صغيرا .
اما « هلال » فقد اصبح مصدر الرزق

* * *

« هلال » كان صغير اليدين ،
صغير العينين
يحمل خنجرا صغيرا .
كان مكتوما حين تجاوز السابعة عشرة .

بسرعة كتبوا له عرضعال ، وبسرعة اجروا له المعاملات ، وبأسرع من ذلك جندوه ! .

سلموه سلاحا صغيرا ،
ومعطفا صغيرا ،
وخوذة صغيرة ،
بحثوا له عن حذاء صغير ، فوجدوه بصعوبة .
أرادوا ان يعطوه عملا صغيرا . ان يصبح طباخا، مثلا، رفض ذلك باصرار وقناعة .

قال له الملازم مازحا :

ـ آه ، يا شيبوب أنت ، على ما يبدو ، اكبر من حجمك .

عبس وتولى . ثم ادى التحية وانصرف .

* * *

« هلال » لم يكن من المدخنين . الا انه كان يشتري علب « خصوصي للجيش (٢) » ويعنونها للشمال . اشترى مذياعا وعنونه للشمال . عنون بعض النقود ايضا .

* * *

« هلال » لم ينل غير عقوبة (٣) واحدة فقط . كان ذلك في ليل مظلم ، غنى فيه « خليل الحسن » بعض « الفراقيات » فأطلق « هلال » ثلاث طلقات كـ « شوباش (٤) » .

* * *

في الليالي الباردة، الصامتة. كان يبدو مكورا ، ومبللا بالحزن . وحين يشتد الحنين ويطفح ، يتناول « هلال » ربابته ويغني بمرح :

يا عسكري يا مجند
يا لبّاس الصيداره
بكره تشلح البدله
وتدور عالسيكاره

وعندما يتخثر الصوت ، وتتمركز المهمة امام

الوجوه ، يطلق صوته العنان، ليسرع مخترقا الاسرة ، منتصبا كالراية .

يحق لنا ثياب الحرب والباس
على للي خرب الناموس والباس
زمانن خلا ابو الحصان (٥) والبس (٦)
يتعربش بالفضنفر ما يهاب .

كان الكثير لا يفهمون هذا الانيس القروي ، المكابر، الا انهم جميعا ، كانوا يتحسسون كبرياء حنجرته ،ونزيفها الحاد .

* * *

انه يجهل تماما . الطوبوغرافية ، ولا يعرف جيدا نقاط العلام ، ونقاط السمت، ويخطىء كثيرا في تسلسل الرتب العالية . ما يعرفه انه جاء في يوم محدد ، وبمهمة محددة ، وربما لن يعود وهذا ما لا يقلقه ابدا . فالحرب صعبة وليست نزهة في القرى المجاورة، كما يكرر دائما والده . بل هي حالة يتحسس فيها المرء رجولته ،ويزهو فيها المنتصر كالطاووس امام المعتدي المهزوم ، كما يؤكد « حمزة الضاهر » العائد من الجبهة منذ ايام .

قال له الملازم بهدوء :

ـ يبدو ، يا هلال افندي ، انك اتعبت نفسك في التحضير للدرس ، الا ان ما تسميه « العريجه » يعرف بالزناد .. الزناد وليس « العريجه » اكرر ذلك للمرة الالف .

اكمل هلال » .

ـ « الايد ثابته مع تسديد الشعار ومن فوق راس الشعيرة حتى النقطة السودا ع الدريئه وبعد ما نركز نضغط بقوة على العريجه » .

قاطعه الملازم بنزق وحدة :

ـ الزناد .. الزناد وليس « العريجه » يا هلال .. يا بهلول .. يا عقلة الاصبع .. يا حم .. ؟

عبس « هلال » واقطب ثم ابتسم بسخرية مريرة :

ـ الزناد .. الزناد .. الزناد يا سيدي !

* * *

بين الزناد و « العريجه »
كان يكمن « هلال » .

* * *

ذات يوم مشمس وجميل .. طرقت الابواب حرب بدت صغيرة للغاية . استنفرت الاذاعة اولا ، واغلقت (٧) المتاجر والمصارف والمؤسسات الحكومية والمنظمات ثانيا . وفي اليوم الثالث اصبحت الحرب هي القضية الاولى . وحين نهضت نهض «هلال» يتقدم من تقدم ، حيث توقف البعض وسقط البعض ، وصارت الدبابات تتعاقب بسرعة ، والطائرات تتساقط كالعصافير، وامتزج الرجال بالارض وغبارها، ونسيت الايدي ارتخاءها القسري الطويل ، ثم اخذ الموت يوسع دائرة اهتمامه ، ليشمل الشجر والحديد ، الطيور والطائرات ، والسهول وما تنتج ، الاذاعات وما تذيع . الجرائد والحدائق ، الجنود وبعض العرب ، الارض وجنين الارض. الا ان الموت شعر بحزن وعجز ، وبرغبة الامتلاك التي تستعمره قاصرة وسخيفة ، لان « هلال » كان يركض كالضوء ، ومعه الصرخة المدوية ، والاصرار المجنون :

ـ عليهم .. !

واصل دون ان ينظر الى الخلف .

وفجأة .

وحين شعر بالفرح العظيم يتسلل لاغصان جسده ابتسم ودمدم :

ـ « يا محمد ! .. سنأخذهم كالخراف . وسأتوجه بعد ذلك للشمال ، وسأحدث عن نزهة الحديد والموت ، لا نزهة الحقول والقرى». الا ان الطلقة المجلجلة والخائنة غافلته، فصر على شفتيه ، وشعر بألمين وندم :

ـ غافلتني ايتها الكلبة الخائنة . تفو .

غامت الدنيا امامه ، وشعر بأن وقت السقوط في المأثرة الكبرى قد حان ، ثم بدت الاشياء صغيرة صغيرة للغاية .

ـ آه .

وهوى واقفا وكبيرا .

* * *

حين عنونوا حقيبته الى الشمال،كان مما كان بداخلها عدد من علب السجائر الرخيصة الثمن، وقطع من « الدامسكو » الدمشقي ، وصورة كبيرة لوالده .لم ينسوا هذه المرة ، ان يرفقوها بوسام وثلة من الجنود .

الاتحاد السوفياتي — ابراهيم الجرادي

---

١ ـ المرادف المحلي الرفاوي لكلمة « كفى » .
٢ ـ نوع من السجائر الرخيصة الثمن المخصصة لافراد الجيش .
٣ ـ العقوبة لم تنفذ .
٤ ـ في الاعراس والافراح . تعبير ـ مادي او معنوي ـ عن الرضا .
٥ ـ الثعلب
٦ ـ القط .
٧ ـ الملاهي وما شابه ذلك من محلات اللهو كانت مغلقة سابقا.